عبد الكريم غلاب

آدم يبحث عن حواء

2024

آدم يبحث عن حواء....

-1-

صاح بأعلى صوته :

- يا امرأة... أين أنت يا امرأة... ؟

ردد النداء، كما لو كان يناديها لأول مرة، كما لو كانت تتغيب عنه لأول مرة.

ترددت أصداء الصوت المشوق في الآفاق، تخللت بين الأشجار والغابات والوهاد، عاد الصدى إلى أذنيه مبهورا، كما لو كان مفزوعا، لم يتوقف عن السير بخطوات قوية، أرخى أذنيه على صوتها ينفذ إليه على ضعفه ورقة نبراته، لم يفد منها صوت ولا صدى.

- أين اختفت هذه الشقية، دأبت أن تتغيب وتطيل الغيبة، مضى وقت غير قصير على اختفائها وراء الشجرة الفارعة، تعرف طريقها، ستعود، ما الذي دهاها ؟ ضحك وهو يفكر مجاهرا بصوت عال :

- ما أدري، لم تأتي ولم أتضايق من غيابها؟ أفتقدها؟ لا هي دائما معي، أتضايق من العزلة والوحدة، طالما تركتني تحت شجرة لتؤي إلى أخرى، تتضايق من السير فتختفي وراء غصن فارع، تستلقي مصغية إلى بلابل وطيور، أسألها :

- لم فعلت ؟

- فتجيب :

- ولم فعلت :

طيفها يغريني بالبحث عنها متى تغيبت، تراها تبحث عني إذا ما تغيبت ؟ تفعل ولا تقول : أشعر بذلك، ربما كانت تحب

أن أتغيب، تود أن تعرف أين ؟ وَلِمَ ؟ تلح في السؤال، أتضايق وأجيب. فكرها غير راض.

- تراها ذهبت إلى أين؟ نفس الأشجار والحشائش والأنهار والروافد.

أجابت وقد التقينا بعد عودتها ؟

- حيث النجاة، فثمة جنة الله...

- ألا تشعرين أننا يجب أن نكون معا في جنة الله ؟

- ألا تشعر بأنني يجب أن أتمتع ببعض حريتي...؟

- كما يجب أن أتمتع أنا بكل حريتي...؟

- إذا استطعت فافعل...

- وأنت تستطيعين ؟

- وقد فعلت. أنت تتضايق وتخاف، كما كنت - مثل أيام زمان - طفلا صغيرا.

- أنا راشد، تدركين ذلك فيما أعتقد ؟

- ومع ذلك تعبر عن تضايقك وتخوفك - مم تخاف ؟ ماذا يضايقك ؟

- صيحاتك، سمعت صخب صوتك، كنت قريبا مني. ثم ماذا يفيدك تواجدي، ستعرف أني غير ضائعة، مثلي لا تضيع فجنة الله واسعة أينما ذهبت فأنا امرأة.

- ستختبئ مرة أخرى ستتيه بين الأشجار والأغصان والأكمام المغمورة برائحة الأشجار والأزهار والورود والفواكه وطيبات الجنة. (قال لنفسه)

شعر بأنها ضغطت على أعصابه وهي تتحداه، كاد يصيح في وجهها. أطفأ غضبه. لم تكن المرة الأولى التي يغضب من تحديها. لم تكن المرة الأولى يواجه تحديها بأعصاب باردة. ما

كانت لتتحمل هدوءه، تريده أن يثور، أن يرفع صوته ويشرع كفه في وجهها كما فعل مرة، ثم رجعت يده في هدوء معتذرة دون أن تبلغ مداها.

ابتسمت في وجهه، ابتسامة ملؤها الحب، تعبيرا عن اعتذار.

- أنت يا رجل ينقصك الصبر، ستتعلم كيف تصبر.

- أوَ أنتِ التي ستعلمينني...؟

- ولَم لا؟ أنت الآخر تعلمني الكثير، أقضي حياتي كلها أتعلم: افعلي، لا تفعلي، لِما تغيبت... آن لي أن أعلمك.

- وماذا ستعلمينني يا أمة الله؟ تعلمينني ما لا أعرفه؟

- أو تحسب أنك تعرف كل شيء؟ سأعلمك كل ما أعرفه ما لم تكن لك فرصة للتعرف عليه، أنا غيرك، ومن طبيعة الغير أن يعرف ما لا يعرفه الآخر ألست على حق؟ أليس من حقي، ومن طبيعتي، ومن جنسي أن أكون غيرك...؟

لأول مرة يطرق أذنه مثل هذا التحدي.

- هي غيري ؟ لم أفكر في هذا من قبل. كيف عرفت أنها كذلك ومن ضلعي خرجت ؟ اخترعت الفكرة، أنها غيري، أقنعت نفسها، تريد أن تقنعني، أن تفرض علي أنها غيري، لتصل إلى فكرة أخرى : أن تعلمني ما لم أكن أعرفه من أن الجنة تغيرت... لا... لا... لم لا تتغير؟ تطورت؟ هي التي تطور تفكيرها. بدأت ترفع الصوت، تصيح. تزعم أنها تعلمني. أية حياة سلكت بي في قضيتها... ؟

سبَح في تفكير عميق يردد فكره الكلمة...

ولم لا تكون غيري ؟ أفضل أن نكون اثنين : هي هي... أنا أنا... حتى إذا تغيبت بحثت عنها، لأني لا أبحث عن الأخرى. (عمق تفكيره)، ثم هي ذكية أدركت أنها هي غيري، سأريها أني غيرها.

تركها مستلقية على قفاها يغطي جسمها عشب ناعم كثيف. نهض من مستلقاه يخطو خطوات عنيفة علها تسأله :

- إلى أين...؟

لم يرتح لانشغالها عنه... خطا في إصرار دون أن يهمس بكلمة، اختفى وراء شجرة ثم أخرى، واجهته شجرة فارعة متكاثفة أغصانها، أسند ظهره إليها، جذعها الضخم متدرج كسلم سهل الصعود، صعد درجاته متمهلا، اختفى السلم لتجد قدماه أغصانا قوية أحدها يمسك بذيل الآخر، وأشواك ناعمة تغطيها الأغصان، واحد تلو الآخر. وصل قمة الشجرة طويلة مترامية متشابكة. شعر بأنه ارتفع.. علا عن سطح الجنة المعشوشب، اطل عليها رآها مترامية بدت له بعيدة المنال. سهل مرصع بأشجار الليمون والرمان والزيتون والتفاح.

- ما أجمل أن أرى هذه الجنة من أعلى. النهر الرقراق لا يبعد كثيرا، خرير مياهه يشنف آذاني، يبدو لي أن نجعل من هذا

المرتع الأخضر منزلنا، الجنة كلها منزلنا، قد يكون غير هذه الشجرة ما هو أروع جمالا وأبهى منظرا وأنعم مستقرا، شُغِلْتُ عنها لما أنا فيه من سمو، ستبحث عني فلا تجدني. سأسمع صوتها يناديني، وما هي ببعيدة ولو كنت مختفيا عنها. همَّ أن يناديها ليشعرها بمكانه فوق الشجرة. لا. سأتركها تبحث عني فلا تجدني. تشغل نفسها قليلا بضياعي كما شغلت بضياعها، يوم ابتعدت حتى اختفت...؟ لا... لن تفعل، لا أشعر بأن غيبتي كغيبتها. عمل لا يثيرها. ظل يفكر فيها ؟ ينكر على نفسه ذلك. ارتاح للوحدة، لا يؤنسه غير الهدوء وحفيف الأشجار كلما هفهف نسيم. استلقى على قفاه، تجولت عيناه في الملكوت، رَضِيَّ النفس بَاسِمَ الثَّغْرِ، لمسد لحيته في مداعبة صبيانية، يسعده - أحيانا - أن يتصرف كصبي، ترضيها صبيانيّته، ترضيه صبيانيتها. لا تكاد تتحرك إلا صبية.

- يا امرأة أنت الآن أكبر مما تتصرفين.

- ومن أدراك بأن ما أمارسه صبياني ؟ ربما تجاوزت السن الذي يرضيك فيه سلوك واحدة في سن ابنتك.

- في سن ابنتي... ؟

- نعم ألم تقل لي أني ولدت من ضلعك... ؟

- هكذا يختفي الزمان...

- الزمان وما الزمان ؟ الله الذي خلقكَ من طين ثم سوَّاك رجلا. وكذلك أنا معك، ثم سواني امرأة. أتعرف لماذا ؟ لأطرد عنك الوحدة والسأم والخوف، ولأمنحك عملا هو : البحث عني إذا تغيبت. وهو الشوق إلي إذا ما بحثت عني بين الأشجار فلم تجدني، هو الخوف علي. ممن ؟ يعجبني خوفك علي بقدر ما يعجبك، ممن... ؟ الطبيعة الجميلة لا تلتهم حسناء مثلي، أنت رجل يغار من ظله. ومن الظلال والنسائم والبهاء والروائح الكريمة التي تحيط بي. وبك... تحيط بنا معا...

استيقظ من أحلامه على كلمة الغيرة :

- أغار ؟ شيء آخر وراء الغيرة ماذا أُسَمِّيه يا رب ؟ هذه المرأة تسعدني بقدر ما ترهقني. سعادتها في أن تغيظني، تسعد حينما تراني سعيدا مبتهجا بوجودها بجانبي، ترتاح حينما تغيظني حتى يبدو على وجهي الغيظ، تضحك بملء فيها وهي تدعك ركبتي وتداعب لحيتي.

- لك شعر هنا وتمسك بوجهي - لِمَ ليس لي شعر هنا - وتمسك خديها - لسبب ما لم يرزقني الله جمال فحولتك. لم يرزقك الله نعومة هذه التي تسميها المرأة. ويحلو لك أن تداعبها فتدعوها أمة الله. يبدو لي أني سأدعوك أنا أيضا : عبد الله. ألا نقول عن المرأة أمة. إذن دعني أكني الرجل: عبد فكر في هذا المنطق المتحدي الذي تواجهه به. لم يقدر له صدا. ملأ فكره هذا السؤال :

- من أين تعلمت كل هذا؟ أصبحت تعلمني ما ليس لي به علم... أية امرأة هذه؟

طال انتظار صيحاتها تبحث عنه. أرخى أذنيه طويلا، لم يستمع. يبدو أنها تاهت في الحقول بين الرياحين والأشجار. لا أخشى عليها إلا الأنهار، تتردد على الماء فتسبح كما لو كانت ولدت في الماء. لا أملك أن أجاريها. تضحك بملء فيها حينما نتسابق فتتركني خلفها بعيدا، أذكر المرة التي سابقتها فسبقتها. لم أضحك حتى لا تشعر بخيبة. قطبت حاجبيها. تنساب آثار دموع في عينيها، أصبحتا أجمل مع قطرات الماء، لم تبك.

- لم تسبقني لقوتك، بل لأني شعرت بعياء في قدمي (ضحكت في بهجة)، لن أمكنك مني مرة أخرى.

- النهر ناعم لا يرعبني. أخشاه، لا أعرف لماذا...؟ أخشاه حينما يحتويها، هي التي تعيش في الخوف، لا هو.

صاح مرة أخرى بصوت أعلى. رددت أذناه صدى الصيحة. لم يصله جواب منها. قدري أن أبحث عنها. لا أنتظر أن تبحث عني. عرفت ذلك واطمأنّتْ على أني أبحث عنها لأجدها، ربما

في أقرب مكان إلي. لا ترغب في أن تشعرني بذلك. ألفت طبعها. ترتاح لمن يبحث عنها، لا ترغب أن تبحث عن الآخر (أنا) أكدت لي مرة أنها امرأة.

- أعرف ذلك، ماذا يعني أنك امرأة وأنا رجل، ماذا يعني إذا أكدت لك أني رجل...؟

انبهرت للسؤال.

- لا أدري ماذا يعني ذلك ولكن أشعر بأني غيرك. أسألك : لماذا لا تبحث عني إذا تغيبت في الحقول، أو سبحت في الأنهار، أو انفردت بنفسي وراء شجرة ؟

- ولِمَ لا تبحثين عني إذا فعلت ؟

- ربما لأني أثق بك أكثر مما تثق بي، أو ربما لأني أعرف أين أنا، أين نحن ؟

- في جنات عدن.

- أعرف ذلك. ولهذا لا تنتابني غيرة ولا خوف. شيء واحد قد يضايقك هي العزلة أحيانا، أرتاح أحيانا للوحدة والهدوء والتطلع إلى الملكوت.

لم يطق صبرا كانت تعرف ذلك. سيبحث عنها. سوف لا يجدها بين الحشائش والأشجار وسيقان الورود والزهور. أخذت طريقا غير طريقه، مشت حتى كلت قدماها فوجدت شجرة عارية إلا من خضرة تتبع من أردانها، رفعت عينيها عن جذع الشجرة تبحث عن فرعها، بدت لها تضرب في كبد السماء.

- هذه لم أعثر عليها قط سأتسلقها.

- ملساء عارية عالية...

- ليكن، سأصل.

وبدأت خطواتها متحدية الجذع العاري، تهاوت كفاها وقدماها وقعت جالسة على العشب الرطب.

- أهذه التي تتحداني...؟ سأتحداها، سأحاول، سأصل إلى القمة.

- رفعت رأسها تبحث عن القمة بدت لها - أكثر من ذي قبل- شاهقة متحدية. انتفضت من مقعدها قوية عازمة. ضمت كفيها في صمود ثم طوقت ساق الشجرة، قفزت بقدميها تمسكان بالعمود الأملس. الكعبان والقدمان تتبادلان القفز إلى أعلى. لم توجه عينيها إلى أسفل لتتعرف على مقدار ما بعدت عن الأرض فقد كانت عيناها تتطلعان إلى أعلى القمة، تبتعد أكثر مما تقترب. يحفزها ألا تبعد إلى الإسراع بخطواتها المتسلقة. تقترب أكثر مما تبتعد، نطقت في سرها وقد طفت ابتسامة على شفتيها:

- سأصل، فما أخلفت وعدا. إذا لم أكن أنا التي سأتحدى هذا العمود السامق فمن؟ الرجل؟

لم نجب عن سؤالها : طاف بخيالها ترهل في بطنه وبدانة في فخذيه، لم تتمكن من تلمس بطنها وفخذيها، دائما تمسد

فخذيها تحت الضياء، في فواحة الأشجار، بين تيه الماء في الأنهار. تحذر أن تفعل ذلك بحضور آدم، سينهاها، كثيرا ما يفعل.

تصاعدت بأسرع مما بدأت. اقتربت من القمة تحدوها الثقة أنها ستصل، وضعت كفيها على قمة العمود مرسلة ضحكة مدوية ودت لو سمعها كانت ضحكة النصر. ستحكي له القصة. لن يصدق، رمت بنفسها إلى أعلى في مغامرة. وسيجيبها بأنها مغامرة ناجحة. ودت لو رآها ممسكة بقمة العمود. لو رآها تصاعد رويدا رويدا، وتخاطبه من سمائها : تناديه أن يلحق بها، سيعجز. وتضحك بملء فيها، وهي تشجعه على أن يفعل، سيحاول سيفشل في الخطوة الأولى، ستنزلق كفاه وستزل قدماه. وعندها سيناديها :

- انزلي فلن أصعد إليك.

ستجيبه ساخرة :

- اصعد فلن أنزل إليك.

قطعت حوارها الذاتي بصيحة لم يتبين كلماتها من لعيد، ليست نفس الكلمة التي ألفت أن يناديها بها، الصوت يقوي كلما اقترب من جذع عمودها. يبدو أنه لم يرها، بدا لها من بعيد كقزم يخطو بخطوات قوية، صاحت بأعلى صوتها :

- يا رجل... يا آدم...

صدى متهاون اقتحم جدار أذنه.

- إنها هي... ولكن أين ؟

رفع عقيرته بالنداء من جديد :

- يا أمة الله.

تبينت الكلمات الجديدة لأول مرة يهتف بها. أعجبتها الكلمات. أخرجها من رتابة ما يناديها «امرأة» بأمة الله. لقد شرفني. ماذا أناديه إذا ظل يسميني بأمة الله : عبد الله؟ سيرضيه ذلك سيضحك من أعماقه راضيا مرتاحا. نادت من

قمة العمود بأعلى صوتها : يا عبد الله. بلغة الصدى أكثر من ذي قبل. أخذ يجيل نظره هنا وهناك والصوت يقوى مخافة أن يبتعد. جلبه الصوت الناعم إلى جذع العمود. رفع عينيه إلى أعلى رأى سحبا في القمة. جدد النداء : «يا أمة الله». وجددت النداء : «يا عبد الله». أخيرا تعرف على مكانها.

- أين أنت ؟

- أنا في القمة. إصعد، المنظر من هنا أروع من رائع. أرى الأنهار والأشجار من كل الثمرات، اصعد ربما يروقك المكان فنسكن هنا.

ضحكت القمة لا تَسَعُ كفِّي. نسكن هنا نحن الاثنين، ربما لا تروقه، القمة لأمة الله، أما عبد الله فيكفيه السفح. لن يستطيع الصعود. سنرى.

- يا عبد الله حاول.

- الجذع أملس. الشجرة الفارعة التي كنت في قمتها مريحة للجلوس والاستلقاء. رائحتها كريمة، ذكية.

- انزلي يا أمة الله.

- إذا قلت لك إني سأبقى هنا أو تصعد معي ؟

- لن أصعد فالنهر يناديني. سأسبح وأغتسل.

- انتظرني إذن، سأنزل إليك بعد قليل.

أخذت تنزل ببطء تحسبا من أن تنزلق فتهوي على قفاها، كان يتتبع حركاتها الحذرة ويتسائل : كيف تمكنت من الصعود؟ هذه الجريئة... كل يوم تفاجئني بمغامرة. ليكن، إذا لم تغامر لن أغامر... ماذا نفعل في زماننا الذي يبدو أنه لا ينصرم ؟

القفزة الأخيرة كانت بين يديه تعمدت ألا تتلقفها الحشائش ولو كانت ناعمة، سر بحركتها الطائرة لتقع بين يديه كسمكة نافرة من موجة ضاربة، ضحكت ضحكة عذبة، وهي تمسد

شعر وجهه في عذوبة ورقة مبتهجة بنصر حققته، مواجهة كل التحديات، سر بانتصارها ضحك في وجهها. حاول أن تكون ابتسامة فضجت أذنها من صوته. مدت ذراعيها فتعلقت بعنقه عيناها في عينيه وجهها الناعم يواجه وجهه الحافل بالبشر - كان يبدو لها خشنا رغم نعومته. أرخت جسدها مدت ذراعيها متعلقة به، تحرك رجليها في جذل. تبتسم. تضحك تشتبك ذراعاها تمسكان بعنقه. كان سعيدا.

- حققت معجزة، أليس كذلك ؟

- لو استشرتني... ؟

- لحرمت من هذه المعجزة.

- وهل أستطيع ؟

- حينما تريد...

- وتريدين.

كان جسدها يلتصق بجسده.

- تصبب مني العرق وأنا أصعد ثم وأنا أنزل.

- كنت خائفة ؟

- لو لم أخف لما حققت معجزة... النهر يدعوني أنا أيضا إلى أن يحتضنني.

خلصت كفها من كفه، أخذت تقفز كطائر في صيحة الصباح نحو هذه الشجرة وتلك، تقطف حبات ثمارها، تناوله إحداها وتأكل الأخرى.

- ما أطعم هذه الثمرة، كأني لم أطعمها قط من قبل.

- سر هذه الكائنات هو التجدد، ما تطعمه الآن لم تطعمه من قبل، كل شجرة تتجدد في لونها وشكلها وثمرها.

ضحكت ضحكة عارمة، وهي تقف في مواجهته أضافت :

أود أن أتجدد كل ساعة، أنا الآن غيري قبل، لو بقيت أنا التي كنت لمللت النظر في وجهي. أعرفك بسر تعلقك بي ؟

- أعرفه، أشعرني ما في كياني : لو لم تكوني لما...

- لا تضف كلمة. أنا التي أعرف سر تعلقك بي، هو تجددي (ابتسمت) ألم تشعر بنفسك وأنت تغير خطابك لي يا امرأة... أصبحت أمة الله في يوم آخر سيصبح لي اسم جديد لأني لن أعود تلك التي كانت.

طفقا يركضان نحو النهر، كانت أسبق منه ارتماء بين أحضانه.

- 2 -

إستفاق من رقدته، تلفت ولم يستقم جالسا، شعر بكيانها ملتصقا به، ستكون في أحضانه، ذراعاها تعانقه في حنان وارتخاء، أنفاسها تصاعد مبهورة، كأنها متعبة من مسيرة، شفتاها تنطقان بكلمات هامسة، غير مفهومة، عيناها مغمضتان كأنهما تسبحان في نوم عميق، شعرها السبط منفوش كما لو كانت أصابعها تعبث به في رفق، تطلع إليها، لجسمها المتداخل الملتجئ إلى حضنه كأنه يفر من رعب، إلى ووجهها وشفتيها وشعرها، وما تحت عنقها ما لم يكن يلحظه من قبل قط. ارتعاشة منفعلة هزت كيانه.

ما بي مما لم يكن يستزفني من قبل؟ أتكون هذه المرأة أوقعت بي خللا في أعصابي؟ لا لم يحدث هذا من قبل، أيكون مس طاف بي في رقدتي ؟ لا... شيء ما يحدث في هذه الرقعة، ربما كانت الروائح النافذة من الزهور والورود والرياحين تحدث في الجسم ما تحدثه في النفس من انفعال... ربما ما طعمناه قبل الرقاد هز كياني، كما لم يهتز كيانها، هي نائمة كما لو أنها تعرف النوم لأول مرة. ما لها ملتصقة بي ؟ لعلها كانت مرعوبة من هبات النسيم وخشخشة الأغصان، لا هذا ولا ذاك... تصرفاتها أخيرا بدأت تثير فضولي، كل يوم هي في شأن، شأنها الآن هو غير شأنها من قبل، قالت إنها متجددة... صحيح، تجددت نفسها وتجدد سلوكها وارتباطها بي، لم تكن تترك جسمها يلتصق بجسمي... (ابتسم) لم تفعل سوء. آه... أدركت، أتجددها هو الذي أثار ما في من رعشة ؟ تزعم أنها قوية، أيكون ذلك بعض قوتها؟ لو كان الأمر كذلك لضاعت رجولتي... تلك التي أعتز بها، تحاول أن تغالبني وهي تعتز بأنوثتها، في الطريق إلى النهر، في السباحة في الماء، في تسلق أعلى شجرة،

في صيحاتها حينما تصيح وفي غضبها حينما تغضب، وفي رضاها حينما ترضى، آه هذه الأنوثة ربما مكنتها حتى وهي تتسلق جسمي كما تتسلق العمود الفارع الطول، أدفعها عني؟ أوقظها من رقدتها لتكتشف ما فعلت بنفسها معي، أرمي بها إلى بعيد... لا... لم تفعل سوء، ترتبط بي أكثر مما تفعل حينما تصحو، شيء ما يشعرني بسعادة مرعشة، ماذا تقول وهي تهمس بكلمات غير واضحة بين شفتيها، سأذكرها حينما تصحو، لن تذكر بما همست به شفتاها، ستحدثني بغير ما همست في سباتها، لا تنقصها الكلمات، لا تعجز عن القول ذلك سر من أسرارها، تتكلم، وتتكلم. لا تستطيع أن تكف عن الكلام، كما لا تستطيع أن تكف عن السير إلا إذا غلبها النوم. في نعاسها تهمس بكلمات غير مسموعة، غير مفهومة، غير منتظمة، سأتركها على وضعها ما دامت تشعر بارتياح وسعادة، بسعادتها وحدها؟ لن أوقظها، ستأخذ وضعا آخر إذا استفاقت، ستبتعد قليلا قليلا، سترفع ذراعها عن عناقي، ستعيد شعرها المنفوش الجميل في وضعه الطبيعي، كم أود أن أراها في غير ذلك الوضع. حول

عينيه نحوها دون أن يتحرك جسمه، شعر بشوق إلى شيء ما. لم يتبين ما به من مس يزداد مع طول رقادها في وضعها ذلك.

تراها تحلم، قالت مرة أنها رأت فيما يراه النائم أننا التحمنا فأصبحنا جسدا واحدا. ضحكت ساخرا وأنا أقول :

- أبطول قامتي أم قامتك؟ أبنفس الشعر الذي نبت في وجهي أم بنفس نعومة يديك. وشعر رأسك الذي استطال أكثر مما استطال شعري؟ أبنفس هذا النتوء الذي يبرز في صدرك (كثيرا ما يثير فضولي فيزعجني حتى لأهم بأن أضع كفي وأبقيها على أحدهما أو عليهما) أم في مثل صدري المتساوي الأضلع وضعت كفي على صدري أؤكد أنه أملس إلا من شعر خفيف. التفت إلى صدرها. ناعم أملس لازغب فيه، ولا شعر.

تراها تهذي في رقدتها، هذا ما رأته من حلم طريف، تريد أن نكون جسدا واحدا فتكون دوما في حضنه، عانقت جسمه بذراعيها. ازدادت الرعشة في جسمه، من لهفة غمرت كيانه. لا ليس من غيرها هذا الذي يلعب برأسي وجسدي، لو كانت على

غير هذا الوضع لكنت بريئا مما ينتابني، ترى لو أشعرتها بذلك لأنكرت ؟ لتؤكد وجودها حتى فيما يصيبني من مس، لم أعرف أنا نفسي ما هو، ستؤكد أنها هي حلت في دمي فحركته من جمود بارد. ستقول أنها متجددة تمنحني الجديد من المشاعر والهزات النفسية، قد يكون. ولم لا... ؟ هي هي، وأنا أنا، هل أثير فيها من ارتجاج مثيل لما أثارت في، سأجرب سأتكوم في حضنها قد لا يحتمل حجمه أن يحتضنني، سأطوق جسدها بذراعي، وستكونا قادرتين على أن تحتويها، أخشى أن تقسوا عليها كما اشتكت مرة من عنف عضلاتي... سأفعل، سأثير فيها ما أثارت في دمي من حركة لم أعرفها من قبل، ستكون هذه بتلك، أخشى أن ترفض، لماذا لم أرفض ؟ أشعر بتناغم لوضعها هذا، أشعر بشيء جديد، تنقصه الكلمة لأعبر عنه، سأعرف الكلمة إذا تكررت الوضعية، نحن نتعلم الأسماء مع الأشياء. أطلب إليها أن تعلمني ما لا تعلم. تزعم أنها تعلمت الكثير، ذاك هو السر الذي لا تستطيع: لا تقر بذلك.

شعر بأنه يجتر أحاسيس غريبة، تتداعى الأفكار ويزداد ما به، ما لم يعرف له بعد اسما. سأوقظها لتكتشف هي الأخرى ما اكتشفت، أتكون فعلتها هذه من وحي نوم أو من وحي يقظة نائمة؟ لا تتحرك تلقائيا أو عن غير قصد، ولو كانت نائمة، ما تزعمه من أنها أذكى مخلوق لا ينقصه بعض الصدق، سأعرف :

- يا أمة الله، يا امرأة، (اتكأ على كوعيه ليقترب من أذنها هامسا) يا أمة الله. فتحت عينيها مبتسمة دون أن تشعره بمضايقتها من إيقاظه.

- ماذا تريدني يا عبد الله، لست جائعة لأنهض بحثا عن فاكهة، أنا مرتاحة في غفوتي هذه... ألست مرتاحا ؟

- بلى... هل أنت خائفة ؟

- ممن ؟ ليس هنا غيرك، وأنا لا أهابك مثل ما لا تهابني. لم تغير وضعها وقد ظن أنها ستكشف خطأ ما.

- اجلسي يا أمة الله، كفاك نوما.

- تسلقت العمود فهد كياني، كنت في حاجة إلى مزيد من الارتخاء والاستلقاء والنوم العميق، هل تعيش في نومك حياة أخرى غير التي نعيشها معا ؟ أنا كنت في عالم آخر، كنت في سعادة وددت لو طالت، وددت لو تحقق منها المزيد، معك يا رجل (ما تزال متمسكة به معانقة في ابتهاج)، أنت لا تحيى هذه الحياة الأخرى، رأيت فيما يرى النائم أنك...

توقفت الكلمات في ما بين شفتيها، ابتسمت ابتسامة خفيفة.

- أكملي حكايتك.

- أظن أنك فهمت من وضعي هذا معك ونحن مستلقيان.

(صمت ألمَّ به وهو يحاول أن يستجلي الغموض - ما بدا له من غموض - في حكايتها) إذا لم تفهم، ولم أفهم فليس من الضروري أن أصف لك ما حدث، كنت نائمة ما أدري أكان ما حدث حقا أم أضغاث أحلام ؟

تاهت عيناها الناعستان في الملكوت تجتر الحلم اللذيذ الجميل، حدثت نفسها: أول مرة ينتابني هذا الشعور اللذيذ، بأية لغة أعبر عنه. لم يفهمني... غبي هو ؟ غبية أنا ؟ لا... أشياء جديدة تحدث. كلانا لا يفهمها، سنفهم معا حينما تتكرر الأشياء. يلهمني الله الإدراك. أقول الحق : ويلهمه الله.

- يا أمة الله اجلسي (لم يرغب أن يخلص جسمه من قبضتها)، اجلسي أحك لك ما ألهمت في ضياء الفجر الصادق.

قفزت قفزة سريعة، جلست محاذية ركبتيه في مواجهته، أحاطت بجسمه، أخذت أصابعها تعبث بشعر وجهه، انبهر أخذت أنفاسه تصّاعد.

- دعيني أحكي قصتي دون أن تشغليننني بما يطير القصة من ذاكرتي.

لم تغير من وضعها، كفت يداها عن العبث بلحيته، هدأت أنفاسها ثم اقتربت أذناها من شفتيه في شوق يقظ إلى حكايته،

وما يزال الانفعال يربك أنفاسه، فكرت في أنه ألهم نفس ما رأت في منامها، استعجلته :

- اهدأ قليلا، ما عهدتك هكذا منفعلا، أحك فكلي لك آذان صاغية. أفهمك وأمتثل.

انتظر قليلا في حاجة إلى شربة ماء. قفزت، وغرفت بكفها من عين ترة قريبة منهما، شرب وما ارتوى، عادت بكفيها مليئتين بماء بارد.

- كم هو لذيذ ماء الجنة.

- وثمارها وطيب الحياة فيها.

- وأنت من طيبات الحياة فيها. أخشى ما أخشاه الحرمان.

- ماذا؟ (تساءلت مقطبة في انزعاج)

- مجرد خشية، ربما كانت وهما.

- احك... احك، دع الوساوس التي تنتابك حتى في لحظات السعادة...

- أُلهِمتُ إلْهاماً صادقا، «يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة، وكلا من حيث شئتما. ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين».

قفزت من مقرها قفزة فرح وابتهاج.

- أعطيت لنا الجنة نسكنها ونأكل من حيث شئنا. أنت رجل محبوب من الله، وأنا كذلك، لم يهملني الله وهو يقول: اسكن أنت وزوجك، أنا إذن زوجك... هذا مفهوم ما عجزت عن تفسيره، مما رأيناه في منامينا، أنا زوجك، ماذا تعني كلمة زوجك يا رجل؟

- أولا، أنا أُسمي منذ اليوم آدم فلا تناديني برجل بعد الآن، زوجك تعني أزاوجك وتزاوجينني.

- لم أكن مخطئة (تجتر حديثا داخليا) حينما وجدتني متهاوية في أحضانك.

الكلمة تتحرك في فكرها، في فكره تقترب قليلا من مفهومها الحقيقي، تحتاج إلى وضوح... شيء وضح في أحاسيسها، ودت لو استطاعت التعبير عنه، نقله إلى فكره. شيء ما وقع في نفسه، ولو استطاع لعبر عنه (اللغة تولد مع الفعل، قال في نفسه)، شيء قريب مما فعلت بجسمها وهي مكومة في أحضاني، وهي تطوقني، يقترب صدرها من صدري الأملس (طاف بنفسه مس من سؤال لماذا وهي زوجي، هذا التباين : صدرها وصدري ؟ ورقة التوت صدت عن فكره سؤالا آخر) ردد في سره «يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة وكلا من حيث شئتما»، ثم تذكر: «ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين». أي تهديد هذا الذي يأتينا من هذه الشجرة الملعونة؟ الجنة طافحة بالأشجار والثمار وأطايب المأكولات، ومالنا وهذه الشجرة التي يجعلنا الاقتراب منها من الظالمين. أين هي هذه الشجرة حتى نبتعد منها ولا نقترب.

استوت في جلستها المريحة على ركبتيه واضعة كفيها على فخذيها بصوت ودود وناعم متناغم :

- ما يزال عندك ما تقول يا آدم، أتعرف أنه اسم جميل تستسيغه الأذن كما ترتاح لتغريد طير من طيور الجنة.

سر لقولها. عبر عن سرور باجتذابها إليه في رفق، شيء من الوضوح بدأ يسود بينهما ليكشف عن بعض غموض كلمة «زوجك».

- اللقب الجديد فتح أمامي طريقا للخطاب. من الآن اقرني إسمي بلقب «زوجي»

- كيف أقول :

- تقولين مثلا : يا زوجي آدم أو يا زوجي عبد الله.

- كنت سأقترح عليك أن تقرن إسمي باسم زوجتي فتقول : يا زوجتي أمة الله.

ضحك آدم وهو يفكر: هذه الفتاة لا تأخذ منها حقا إلا أخذت منك مثله

قاطعت تفكيره بالقول :

- هذا هو ما أوحي إليك به. «يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة وكلا من حيث شئتما». لا حق منحته دون أن أمنح نظيره، أنا زوجك يا عبد الله، ألك اعتراض.

- من يستطيع أن يعترض على قول الحق.

- أريد... (ترددت) أريد أن تغير كلمة «يا امرأة» بكلمة «يا أمة الله»، آخذ لنفسي كلمة زوجتي اسما كما أُعطيت اسم «آدم» وكلمة زوج.

- اسم «أمة الله» لا يعجبك ؟

- كما لم يكن يعجبك اسم «يا رجل».

- سأسميك...

- لا أنا من سأختار لي اسما.

- حتى هذه تستبدين بها...

- لا ولكن لم أتدخل حينما اختار الله لك اسم «آدم» أحب أن يكون لي شرف اختيار اسمي : زوجتي ... ماذا؟

- ليكن (أجاب طائعا) أترك لك الحرية اختاري لنفسك اسما. إياك أن تخطئي. اختاري اسما لا يقبل التغيير.

- أختار، أختار رمانة، لا. لا. لا تعجبني، أختار ليمونة، لا تعجبني، أختار زيتونة لا أختار تفاحة، تعجبني نسبيا، سأبحث عن اسم آخر (لحظة تفكير)، آه جنة.

- (ضحك آدم ضحكة ناعمة حتى لا يثير غضبها) إذا اخترت رمانة سأفتح أسرارك وآكلك كما نأكل الرمان، إذا اخترت زيتونة سأعصرك وأستخرج زيتك ولربما تكوني مرة المذاق، وأنت أحلى من الزيتون والرمان والليمون والتفاح، وكل

ما يؤكل من حيث شئنا، أنا أختار لك اسما بعيدا عما نأكل وما نشرب.

- على أن يكون عذبا كاسمك، تغرده الطير وهي تقفز من غصن إلى غصن.

- أختار لك اسما يخلد مع الزمن، سأختار لك اسم «حواء».

بهرت فقالت في نفسها اسم جميل وغريب وبعيد عما نأكل من ثمرات الأشجار، حواء... حواء... قفزت إليه تحتضنه بصدرها المنفعل بهجة وهي تشده إليها بذراعيها وعنقها على كتفه ثم أضافت :

- أنت رائع، رائع.

- منذ الآن اسمي آدم واسمك حواء.

- ابتسمت في وجهه مبتهجة : آدم وحواء... آدم وحواء.

- 3 -

أصبح والفخر يعلو وجهه، ابتسامة رائعة ترتسم على شفتيه يتحرك في هدوء وحيوية لم يعهدها في نفسه، يجتر ذكريات جميلة تطفح باللذة والمتعة.

- هذه المرأة حواء... آه وحتى حواء، أشعرتني بوجود آخر، منذ ألهمت : «أدخل أنت وزوجك الجنة» وأنا أتساءل في معنى هذه الكلمة «زوجك» ليبدو أنها أقدر على إدراك الحقيقة، منذ الساعات التي وجدتها في منامها متعلقة بي، مكومة في أحضاني، بدأت تسير نحو مفهوم الزوجية، وصلت بي إلى الحقيقة فيما وصلت بنفسها، بذاتها إلى ما كانت تحلم به. المرأة أكثر إدراكا بحقيقة الزوجية ؟ أكثر جرأة

على الاكتشاف. أقوى تعبيرا عما اكتشفت ؟ أعترف بأن حواء فرجت عني كربا كان يجثم على صدري.

- « أنت وزوجك»، مفهوم جديد منحته المرأة للرجل، كنا نتزاوج منذ سكنا الجنة في التمتع بجميع النِّعَم المتمثلة في الفواكه والزهور والرياحين، وبهذا الطقس الجميل الرائع، وبالهواء الناعم والنسيم العليل الذي يحملنا على أديمه إلى حيث شئنا، وكل ما نريده في الجنة : ننعم بالاغتسال، بالسباحة في الأنهار العذبة، الضياء الباهر الحافل بالألوان والأنوار والصفاء. كان ينقصنا شيء ألهمنا إياه فلم ندرك مفهومه حتى أدركت هذه المرأة، فقادتني بتؤدة إلى الإدراك.

أصبح وجهها حافلا بالابتهاج والرواء، ابتسمت عيناها المبرقتان قبل أن تهمس شفتاها، تحركت في خفة كما لو كانت عصفورا يتأهب للطيران، اتجهت نظراتها في شبق إلى وجهه وكتفيه وصدره وقامته جميعها، ليس هو الذي كان، أصبح آدم

الرجل الذي سيكون، ألهمته المفهوم الحقيقي للزوجية، تراه أدرك ؟ جعلني أدرك المفهوم الحقيقي لرجولة الرجل وأنوثة المرأة، اعترف منذ ألهمت ذاك الإلهام وأنا أبحث. في نفسي، مشاعري، جسمي ما وراء ورقة التوت أجد في البحث. أبحث في ذاته ووجهه الطافح بالرجولة وبجسمه الحافل بالقوة، تعبر عيناه عن الذات الفارعة، تتوقفان حينما ترغبان عما لا تريدان، يوم تكومت في حضنه شعرت بأني أطير في الملكوت، اقتربت ولم أصل، كان يرتعش لم يدرك ما يعنيه الارتعاش، كنت متوهجة وكان يرتعش. كان غافلا أو متغافلا. كان في حاجة إلى لأملي عليه مفهوم الزوجية، المحاولة الأولى أصابتني بالإحباط، كان لابد من الإحباط عند أول تجربة، أن أخرج ويخرج من رتابة الحياة في جنة حافلة بكل مباهج المتعة، أن تضاف إليها المتعة الزوجية، لا تكفي فيها الإشارة «أسكن أنت وزوجك...» كان لابد أن يدرك وكان لابد أن أجعله يدرك، رجل متفوق علي في نشاطه وقوته وإدراكه وبعد نظره

في الجنة. لا يكفي أن أؤنس وحدته وأسمعه صوتي المعارض أحيانا، حينما يلقي إلي بكلماته، فاختباري كان لهدف أسمى، حققنا معا سموه فحققنا بذلك مفهوم الرجولة والأنوثة والحياة الزوجية، شعرت وأنا أكتشف كأني لم أعرفه من قبل، أشعر بأني لن أكون بدونه. اكتشفتا ما وراء الرتابة، حينما تسلقت العمود الضارب بسمقه في العلياء، كنت أهرب بنفسي. ممن؟ منه، ومن نفس الشجرة التي يتسلقها، ومن نفس الفاكهة التي يأكلها، ومن نفس النهر الذي يسبح فيه، كنت أشعر بأني غيره، لم تحقق الغيرية كياني بالحيوية، أجد صوتي ناعما إزاء صوته يملأ الفضاء، حينما يمسك بيدي، بذراعي، أرتجف ليس من قبضته القوية، ارتعاش آخر يتملكني، كنت بلهاء لم أدرك تفسيره، الآن أدركت حينما أطوق عنقه وحينما تلتقي عينانا، عيناي تسبحان في ملكوت لا أعرف ما إذا كانت عيناه... الآن تسبحان، أكتشف جمال عينيه ولون بشرته النحاسية، الآن أكتشف لون عيني، قال لي

إنهما أقرب إلى لون السماء، مرة أخرى قال إنهما أقرب إلى لون مياه النهر، لم أفهم، يبدو لي أنه أقرب إلى الفهم، كان يراهما في لحظات التجلي، قال إنها لحظات التجلي، الآن أدركت أني له. لن أفر من الرتابة بعد، شيء أصبح يشدني إليه. ظننت في يوم ما أنه في حاجة إلى الإدراك. أنا نفسي لم أكن أدرك... ألهمني وألهمته، فحققنا كل شيء. هتف بها وهما في طريقهما إلى النهر :

- لم نحقق كل شيء.

قبل ذلك قلت له :

- إلى أين تسير بي ؟

ضحك وهو يربت على كتفها.

- ضعي كفك في كفي وسيري معي حيثما سرت، أتراني أتيه بك في مباهج النعيم ؟

- هو ذاك، ولكن إلى أين بنا الآن ؟ لعلي جائعة، وقطوف دانية من كل شجرة تفتح شهيتي.

- يا أمة الله.

- لا تعد إلى نسيان اسمي.

- يحلو لي أن أناديك أمة الله حواء.

- على أن أناديك عبد الله آدم.

- اتفقنا. طريقنا الآن إلى الكوثر.

- الكوثر! وما الكوثر يا آدم ؟

- (ضحك ضحكة مرحة وهو يجيب) : أحتاج إلى أن أعلمك الكثير... نحن في جنان لا جنة واحدة.

- تعلمني! أنا معتزة بذلك على أن تعتز بأني علمتك ما لم تكن تعلم.

- تلك مهمة نتقاسمها، كنت السباق (مداعبا) يا طائر الجنة... أعترف.

ابتسمت ابتسامة عارمة وهي تجيب :

- سعيد باعترافك، أنا زوجك يا آدم.

- والزوجة تعيش في طاعة زوجها...

قل في الانضباط مع زوجها، اخبرني: ما الكوثر الذي تقودني إليه.

- الكوثر يا طائر الجنة أجمل نهر في الجنة لم نشرب ماءه حتى الآن، كنا في غفلة عنه. ولكن الآن، أنت وأنا، سنسعد بالاستحمام فيه، مياهه صافية عذبة رقراقة طاهرة، أريد أن نتطهرا.

- نحن نسبح يوميا في النهر الآخر، أنسيت اسمه ؟ ألم تكن سباحتنا هناك طهارة بماء طهور ؟

– بلى... ولكن كوثر. كوثر يا حواء، أنت وأنا يجب أن نستحم بمائه الطهور... توقف عن الكلام فقد أعجزه أن يبين، بادرته قائلة في فضول :

– ألسنا طاهرين يا آدم ؟ إمسك بجسمي لن تجد فيه أثرا لوسخ، بالأمس سبحت في النهر فتطهرت.

– أنتِ يا طائر الجنة طاهر منذ خرجت من ضلعي، أتعرفين كيف خرجت؟ لا تعرفين، ولا أنا أعرف، رب الجنة خلقني من طين، وأنشأك من ضلعي، وأمرنا أن ندخل الجنة فدخلنا. نأكل منها رغدا طيبا حيث شئنا. ذلك ليس عبثا. أنت وأنا نأتي الأشياء بإرادتنا.

– وإرادة الله ؟

– لم تستبقين الحديث ؟ تتظاهرين أنك تعرفين، أعترف (ضحك) وما بي إلا أن اعترف، يروقني انك تستبقين القول الجميل، كانت إرادة الله معنا ونحن نتعايش وهي التي تلهمنا أن

نتطهر أنت وأنا، لا نتطهر في الكوثر من دنس، أمسكي بجسمي (طوقت خصره بذراعها) فلن تجدي به دنسا، ولكنه شيء ما حل بذاتي وذاتك.

- ما هو... ؟ أريد أن أفهم...

- لا تكوني كثيرة السؤال، أنا أتصرف بإلهام، ألهمت أننا يجب أن نتطهر وبعد كل..

قاطعته مسائلة :

- وأنا، لا حظ لي في الإلهام ؟

- بلى، أنا طريق الإلهام إليك، «أسكن أنت وزوجك الجنة» أليس إلهاما لك ولي؟ وسكناها وعشنا في نعيمها معا نتمتع بكل مباهجها وبهائها ونتطهر في كوثرها، ألك اعتراض ؟

- أبدا أعتذر إن كنت ملحاحا. يبدو أني سأبقى دائما هكذا ألح إلى درجة الإزعاج، أحب أن أعرف.

- أشياء أعرف سرها وأبادر لأعلمك فيما لم تكوني تعلمين، أشياء يخفى عني سرها يكفيك أن تعلمي منها ما أعلم. الآن إلى الكوثر يا حورية الجنة.

ضحكت حتى استلقت على قفاها وهي تقول وشفتاها الغارقتان في الضحك :

- ما تركت وصفا جميلا إلا أسبغته علي هذا الصباح، طائر الجنة، حورية الجنة، شيء ما ألم بك الليلة ؟

توقف، توقفت توجه نحوها، كان وجهها المشرق في ملتقي نظراته. ارتعش، ثم قال في نفسه : تلك الارتعاشة عرفتها من قبل، أمسك بكفها وهو يجيب :

- ألا تعرفين ما ألم بي حتى رأيتك طائر الجنة وحوريتها ؟ لا تعرفين. أنا أعرف، أنت يا حواء أشعرتني بمفهوم الزوجية، فألم بي ما أطلق لساني بما أسبغت عليك من أوصاف، لم ينطقها لساني...

- (مستغربة) ومن نطقها ؟

- قلبي يا حورية الجنة، ألا يكفيك ذلك.

- ما أعز قلبك عندي يا آدمي. إلى الكوثر يا أكرم مخلوق عند الله.

- 4 -

- تسابقا حتى اهتديا إلى النهر الذي يتسم بكثير من القداسة، وقفا معا على حافته يمتعان إحساسهما بصفاء مائه وانسيابه الرقراق الهادئ وعذوبة مذاقه.

- لا تسبقيني في سباحتك (ضاحكا) حينما تمشي تكون خطواتك أسرع كأنك تطيرين، وحينما نسبح أحب أن تتبعي خطواتي فالماء يجتذبك.

- (ضاحكة لأنه يسعد بالقول الجميل)... سأسابقك ولا أسبقك، أرضيٌّ بذلك ؟

- تصرفي كما تشائين يا ربيع القلب.

ابتسمت ابتسامة حافلة بالبشر للاسم الجديد الذي أطلقته آدم. انتظرت حتى قفز إلى الماء فقفزت في إثره وهي تناديه بصوت تريد أن يتفوق على صوت رقرقة الماء :

- آدم... آدم... أسبح وسط النهر حتى أسبح وراءك...

أدركته وهو يتجه نحو الضفة الأخرى.

خرجا من النهر. جسمهما يقطر ماء، تركزت عيناه في جسمها اللدن وحبات الماء ترصعه كما لو كانت لآلىء يتفجر ضياؤها في جسمها اللامع في بياضه.

- فهمت الآن لماذا طلبت مني أن أسبح وراءك ولا أسبقك.

- ماذا فهمت ؟

- تعلمت منك حركات في مداعبة الماء ومجاراته، أنت معلم مقتدر.

- يسعدني أنك قادرة على الإدراك، لا تحتاجين إلا لمن يفتح لك الطريق.

- وقد افتتحتها بنفسي. فأنا زوجك. لي من القدرة على أن أفتح من الأبواب ما لك، أو قريبا مما لك. فتحتها من قبل وأنا أيضا أستجيب للإلهام : «إسكن أنت وزوجك الجنة» لو لم تدخل أنت فتفتح الباب لما دخلت زوجك، سعيدة أن أخطو نفس خطواتك وأتحسس موقع قدمك فأنا زوجك.

- لعلك أدركت مفهوم الكلمة قبلي.

- أدركناها معا، لو لم تكن أنت لما كنت أنا (ضحكت في اعتزاز) لا تنس أني خرجت من ضلعك. ولا أنسى أنك زوجي، لولاك لما كنت زوجا ولما كنت...

- لكنت فردا أو لما كنت أبدا...

ابتسمت ابتسامة شعرت بأنها ماكرة وهي تسأل :

- أجبني يا آدم، لا تظن بي السوء، لو لم أكن، ولو لم أكن لك زوجا، أكنت تسكن الجنة ؟

ألقت السؤال وهي تنتظر جوابا غاضبا، شعرت بأنها كمن تتحدى. انتظرت الجواب طويلا، في كثير من القلق كاد يبلغ مستوى الندم، كان آدم هادئا لم يشعر باستفزاز ولا ألمّ به شعور بالتحدي، أحس كأن سؤالا كان يمكن أن يلقيه على نفسه، دهش مرة أخرى لاستباقها القول.

- حواء، أحب أن تفهمي ما فهمته منذ البداية، هناك إرادة تدير الأمر، ولا تتركه للصدفة، أرادت أن أكون وتكونين ونسكن الجنة معا، تفكرين وتسائلين، أفكر وأتساءل، ندور معا في فلك. يمكن أن أجيبك، لم تكوني كما أنت، الذي أدركه، وكم أود أن يكون نفس إدراكك، أننا معا نكون حدثا شاءت الإرادة أن أكون وأن تخرجي من ضلعي، وأن نسكن معا هذه الجنة، لم شاءت الإرادة ذلك ؟ يمكن أن أجيب أيضا بأن الحدث الذي بدأ بدخولنا الجنة ولا أدري كيف سيتحول، كيف سيكون الحدث

بعده ؟ كيف سيكون المصير ؟ هذا الذي سيأتي لم يكن ليكون لو لم يحدث الحدث الأول، كما حدث بكل مكوناته، أنا أنت. الجنة... هكذا بدا لي أن أجيب على سؤال وضعك ووضعتني أنت في دوامة محاولا أن أجيب عنه.

ما يزال جسمه الفارع يتفصد ماء، شعره الفحل بفرز أنابيب ماء تنحدر على ظهره وكتفيه وصدره رقراقة لامعة تحت الضياء الباهر، تركزت عيناها المبللتين بقطرات الماء على وجهه الرجولي الفخم، في لحيته الكثيفة المنفوشة بماء الكوثر، على عينيه السوداوين الواسعتين اللامعتين كأنما تقطفان من بهاء الضياء، على شفتيه الشهوانيتين، عنقه الطويل المستقيم، صدره البارز تجلله شعرات سوداء، فخديه القويتين، ساقيه الدقيقتين، يقف بقامته السامقة على شاطئ الكوثر.

- ما بك تتطلعين إلي بفضول كما لو كنت تشاهدينني لأول مرة ؟

- لا ليس أكثر من أنني أراك لأول مرة خارجا من كوثر...

- ضحك وقد أدرك أنها تخفي كل ما لم يتبين طريقه بعد إلى لسانها

- يا حورية الجنة (تبتسم للكلمة وتسعد لسماعها منه من جديد) تريدين غير ما قلت، أفصحي.

- أو ظننت أني لن أفصح، غير أني أنتظر أن أستجمع الكلمات، سؤالي قد يكون مفاجئا، أعتذر مقدما، عودت نفسي على أن أسألك في فضول، عودتني أن تعلمني ما لم أكن أعلم، لي بالحديث بفضول أوحيت لي به أنت في قامتك الطويلة وجسمك المكتمل.

- يا أمة الله، (أدرك ما وراء هذا التمهيد المستطيل)، ألفت أسئلتك المحرجة (صمت قليل) فضولك، تكلمي أذني في اتجاه شفتيك :

- أخبرتني مرة في لحظة هادئة أن الله خلقك من طين، أسال - وتقف أمامي هكذا - تشير بيدها إلى الجسم الباهر - كيف تحولت من طين إلى جسم يسبح فوق الماء ولا يترسب طينا في أديم النهر... ؟

ضحك آدم ضحكة عارمة :

- أو كنت تريدينني أن أعود إلى طين وماء كما بدأت... ؟

أدركت السخرية في جوابه فحاولت أن تعتذر :

- أعتذر من جديد...

- (مقاطعا) لا تعتذري، كم يفرحني أن تصارحينني بما يطوف بفكرك. أعرف أن فكرك يتحرك كما تتحرك قدماك، أقول لك الحق، ذلك سرك ياحورية الجنة لو لم يتحرك فكرك (هدف إلى إغاظتها معابثا) لكنت في حاجة إلى أخرى يتحرك فيها الفكر كما تتحرك القدمان، سر من أسرارك لا تضيعينه.

- أعدك...

- وأجيبك، لم تسألي نفسك السؤال نفسه، خلقك الله مما خلقني، وأنت الآن أمامي متحركة فاتنة، يتفصد جسمك قطرات ماء لامعة، تحت بهاء الضياء.

- ولكن من ضلعك...!

- ضلع قد تكون من طين، قلت لك مرة أن هناك إرادة عليا تتحرك، تحول التراب إلى إنسان، لعله أمامك وتحولك أنت من لا شيء إلى إنسانة، هي أنت التي أمامي، افتحي عينيك على النهر وعلى الأديم الذي تقفين عليه، على الكرمة والشجرة التي تنعمين بظلها وتأكلين من خير ثمارها، ولكي نكون مجموعة متجانسة، أترين الطين ينبت شجرة بأوراقها وظلالها ؟ يمكن أن تنبت إنسانا يتحرك بفكره في فضول كما تتحركين، أنت وأنا من مخلوقاته، أفهمت الآن ؟

- أكاد... ربما...

- يوم يتفتح فكرك فتدركين ستكونين حقا حواء...

- 5 -

توارى الغيظ من وجهها وراء ابتسامة حاولت أن تكون صادقة :

- آدم أنا زوجك، ولو لم أكن لك زوجا لما سكنت الجنة ؟

نظر إليها وهو مندهش من حديثها في تطور مفاهيمه وجرأته، تغاضت عن انفعاله وهي تضيف :

- دخلنا معا ونعيش معا. نمارس كل شيء معا، فلم لا أعلم ما تعلم ؟ أحب أن تعلمني كل ما علمك الله من الأسماء، ستجدني أهلا لذلك، وأنا أهل، ساعة صاحبتك في دخول الجنة.

- هذه الحورية تتحدث بعقل طموح، هل يؤذن لي أن أعلمها «الأسماء كلها» ؟ هل هي حواء زوج آدم أم هي آدم آخر في صورة

امرأة ؟ (استمر يحدث نفسه) كل ما يعرف آدم يجب أن تعرفه حواء ؟ ربما كنت ضالا إن فعلت، وربما إن لم أفعل قد أكون كذلك ؟ هل هو حقها أم هو واجبي ؟

أدارت فكره دوامة السؤال وهي تتطلع في شوق إلى جوابه، ارتعش جسمه، كما يرتعش كلما أدركته الحيرة، حاول أن يخرج من الدوامة وهو يضيف لنفسه.

- أنتظر الإلهام.

التفت إلى حواء وهو يواري دوامة الحيرة بفعل القرب، أمسك بساعديها بقبضة قوية، حرك جسمها اللدن، المبلل بماء الكوثر، كما لو كان يريد أن يضمها إليه، استجابت في طواعية وأذناها معلقة بشفتيه :

- عرفت وستعرفين كل شيء يا أمة الله، تخشين أن يكون زوجك يعلم ما لا تعلمين؟ (مبتسما في تحبب) من يستطيع تجاوزك وأنت بهذا القدر من التطلع والحيوية وقوة المنافسة. في الكوثر كدت تتجاوزينني، أتذكرين لحظات تسلقت العمود، كنت

أخاف عليك قبل أن أراك في القمة تشيرين إلي كطائر حلق في سبع سموات، سيكون لك كل ما تريدين.

ارتمت في أحضانه، عانقته بساعديها وذراعيها في حنان.

لو لم أستجب (حدث نفسه) أكانت تفعل ؟

بدا لها أنها خرجت من أزمة كانت تمسك بتلابيبها. هم وهموم كانت تضغط على مشاعرها فيما كان يخيل لها وهي تعانقه. كانت تستمع إلى ما وراء صدره، شيء ما يدق بانتظام. ابتسمت وأرخت يديها موجهة له ضحكات من عينيها :

- آدم، شيء ما يدق في صدرك !

- أوَ علمت عنه ما تريدين أن تعلمي ؟

- (بدا لها ساخرا) أو أستطيع أن أعرف ما وراء صدرك ؟

- (ساخرا) لو شققت صدري لعلمت.

- لو أردت لعلمت دون أن أوذي صدرك. أنت تعلم الأسماء كلها، وما وراء الصدر قد لا يكون منها.

- هو أقرب إليك مما يحيط بك وما لا يحيط. وتريدين أن يعمك ما أحاطني من العلم ؟ إنك تريدين أن تتعلمي الأشياء كلها حتى ما اختفى وراء هذا القفص العظمى (مد كفه يمسك صدره).

- حتى هذا الذي يدق وراء صدرك ؟

- اسمعي يا حواء، لك صدر مثلي (ركز عينيه على النتوءين البارزين) ما أدراك أن وراءه شيء يدق ؟

- لم أسمعه قط.

- لأن أذنيك لم تلتصقا بصدرك قط، لو كنت ممن يستمعون من بعيد لأدركت الحقيقة.

- إن وراء صدري شيئا ما يدق.

- ولا يتوقف عن الخفقان، تريدين أن أؤكد لك ذلك ؟

- ولِمَ لا... ؟

اقتربت أذنه من صدرها، التصقت بين النتوءين الناهدين، امتدت ذراعاه تحيطان بخصرها المتني، سمع قلبها يخفق بقوة، تزايد خفقانه وهو يداعب خصرها، يمسد ظهرها ثم ينفجر ضاحكا :

- أسمع يا حواء خفقان قويا يصم أذني... ها هو يزداد حدة. اكتمي أنفاسك. زاده نهجك انفعالا، لماذا تتصاعد أنفاسك بقوة؟ ما بك يا حواء ؟

- (في تردد) لا... ليس ما بي إلا ما بك، إذا كنت زوجك فإن ما وراء صدري يدق مثلما يدق ما وراء صدرك.

رفع أذنه عن صدرها وما تزال يداه تطوقها وعيناه في ملتقى النهدين، همَّ أن يسأل:

تتغاضى عن القول وهي مغمورة بمشاعر طافحة، انبعثت بما حسبته عبث شعرات لحيته في مكان الإحساس من صدرها، ودت لو طلبت إليه أن يعيد التجربة ليتأكد مما سمع من خفقان

وراء صدرها، ودت لو طلبت إليه ألا يتخلى عن خصرها من قبضة ساعديه وذراعيه.

- إذا كان يا آدم يحمل شيئا يخفق.

(مقاطعا) وفي شدة وحدَّة...

- فأنا وأنت سيان، يحمل كل منا مضغة وراء صدره تضج بالسؤال، وهي تخفق، تريد أن تعرف الكثير.

- أو شققت على صدرك فعرفت ما به من حب المعرفة ؟

- الخفقان... الخفقان يا آدم لم يكن يتغير وراء صدر أي منا، هل تحس باستمرار بهذا الخفقان ؟

- هل تحسين أنت... ؟

- أود أن أعرف، دعني أنصت مرة أخرى، لعل ما وراء صدرك قد هدأ، سأجرب الأذن الأخرى هذه المرة.

ابتسم وهو يسلم صدره إلى أذنها.

- قد تكون أذنك (ساخرا) ترسل هذه الدقات المتوالية.

- أعرف أني أسمع صيحاتك من بعيد.

- ولم تسمعي دقات ما وراء صدرك من قريب ؟

طوقته بذراعها وهي تلهت كما لو كانت تقوم بمجهود عضلي، رفعت رأسها في وجهه وهي تقول :

- دقات متتالية ومتناغمة، تهمس بشيء لا أتبينه.

- لو تبينت ما تهمس به لكنت (في سخرية) من عالمات الغيب.

- وهل هناك غيب يمكن أن نعلمه ؟

- لا يعلم الغيب إلى الله. حواء دعك حيث أنت، زوجة آدم في الجنة، عالم حافل بما تعرفين وبما يمكنك أن تعرفي. طموحك قد يجعل منك غير ما أنت.

- ما هو الغير الذي سأكونه ؟

فكر طويلا، وهي تحرجه، لا يعلم أكثر مما علم، لن يفضي إليها بما لا يعلم. ولكنها حواء، يتحرك لسانها بكل ما يتردد في فكرها. يتحرك منها الفكر في غير ما ترى وما تسمع وما تلمس. وتلح فتجاوز الإلحاح، ود مرة لو نهرها عما اعتبره زيغا، تراجع :

ليس من حقي، هي زوجي تسير نفس مسيرتي. تأكد أنها لن تتراجع، لا يود أن يحدث بينهما ما يثير التوتر.

ألا تجعلني أتوتر بممارسات وكلام يثيرني، لو استطاعت أن تقف في مقامها كزوجة لآدم ؟. عرفت أنه يدير كثيرا من القول الصامت وهو يتلاعب بأعشاب طرية متغافلا عن موقفها.

- فيم تفكيرك يا آدم ؟

- أفكر يا حواء في أمر مهم.

- أوَ تسمح لي بأن أعرف ما الأمر المهم ؟

- هذا الذي يدور في خلَدِي، تودين أن تضيفينه إلى معلوماتك ؟ ولم لا تطلعينني على ما تفكرين فيه ؟ لك فكر لا يهدأ يا حواء.

(ضحك ضحكة مدوية وهي تجيب) ولي لسان يطارد فكري، لا ينبض بفكرة أو سؤال أو اعتراض إلا كان على لساني، مهما تكتمت. أنا يا آدم ملجأ سرك، تعلم أني لا أخفي عنك شيئا حتى ما يتردد في فكري من صبيانيات. فهمت جيدا معنى الزوجية. علمت الآن أن ما يدور في صدرك هو ذلك الذي يدق وراء صدرك، نبضات أصبحت منذ اكتشفتها تحدثني بما تحدثك به نبضات صدرك. تعيش معنا وتعاشرنا معا وتسابقنا في الكوثر معا.

- (مقاطعا في معاتبة) لم نصعد معا العمود الذي رفعك إلى السماءين.

- لو فعلت يا آدم لرأيت آفاقا تحجبها عنا الأشجار السامقة والنخلات المتجردة... ستفعل، أنت أقوى مني.

- ولعلني أضعف حيلة.

- لا تقلها، أنت من علمني كيف أكون امرأة جديرة بأن تعيش معك في الجنة.

حقا لو لم تكوني هكذا (يحدث نفسه في صمت) لكان ينقصني الكثير. رددها هامسا : أسكن أنت وزوجك الجنة.

أمسك بكفها في تودد، أخذا يسيران ببطء عائدين من النهر في طريقهما إلى الحقل، الحافل بالأشجار والنخيل تعبق رائحة الزهور والورود وما تفرزه أغصان الأشجار من طيب الأزاهير، تسير متخاذلة في طواعية، عيناها بين قدميها، فكرها متعلق بهذا المهم الذي يشغل فكر آدم، كان أكثر اهتماما بالذي أخذ يراود فكره منذ فترة غير قصيرة. عيناه تسبحان في الأفق. كيف يفكر جهرا في هذا الذي كان يقض مضجعه، وكيف يمارس وينتظر الإلهام ؟ التوجيهات والأوامر ؟

ضوء باهر أشرق بين عينيه، انتشر في الأفق. قوسا ذا ألوان متداخلة، أصبحت الطريق أمامه أكثر ضياء وبهاء.

- ألا ترين يا حواء هذا الضياء البهي الذي عم الأفق ؟

- كنت مسدلة العينين (رفعت عينيها إلى الأفق الواسع أمامها) لم أر جيدا. هل يكون أفق الجنة أكثر ضياء وبهاء مما

نعيشه ؟ (مجاملة) عيناك النافذتان قد تريان ما لا أرى. طفر على لسانها ما حدثها به في ساعة من ساعات الاستجابة، الله خلقني وسواني ونفخ في من روحه، كلما تذكرت المقولة أكبرت خلق الله الذي نفخ في من روح القدس.

- أدرك يا آدم، أنك شخص آخر غيري، روح الله هي التي تتردد بين جانبيك. ليس بدعا أن يتكشف لك ما لا يتكشف لي من نور الله، لعل هذه الإضاءة التي انبعثت من بين عينيك، كما قلت، هي التي تضيء لك الطريق فيما تفكر فيه من أمر مهم.

هذه الحرية (فكر في صمت) تنطق أحيانا بما يتردد في فكري، دون أن يجهر به لساني.

- هو ذاك يا حواء، يحدث في هذه الدار من المهمات ما لاينير طريقه إلا ضياء باهر يغمر الآفاق، ويشع في العينين الخابيتين.

- لعلك أصبحت متأهبا لأن تجهر بهذا الذي يثقل ضميرك، نور الله أضاء طريقك، وجعلك تمشي به، أنت مأمور، علمتني ذلك، خد سبيلك إلى ما تؤمر به.

كانت كلماتها مشجعة، بدت امرأة أخرى لا يغريها العيش في مباهج الجنة، تعلمست كيف تواجه المواقف الجادة بما لا تواجه به مسيرة الحياة اليومية في الحقول وبين الأشجار والسباحة في الأنهار.

- أنا وأنت معي يا حواء لم تسكن الجنة لننعم، نعيمها الأبدي، هناك شيء اسمه المسؤولية، الأمانة، ألقيت على كل مخلوقات الله السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها.

- وهل ستحملها أنت إذا أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها ؟

- ولم لا؟ فأنا آدم، الله خلقني ونفخ في من الروح، هذه الروح ستقويني لأتحمل عبء هذه الأمانة، أتريدينني أن أكون متخلفا عن هذه المسؤولية التي سينيطها بي الله عز وجل ؟

- لا ، كيف ستستطيع القيام بهذه بالأمانة ؟

- ذلك ما يؤرقني يا حواء، أخشى ألا أكون غير قادر على أن أوفيها حق قدرها، فأكون ظلوما جهولا.

- (مقاطعة) لا يا آدم، لا تخش شيئا، فمن خلقك من طين وجعل الملائكة تسجد لك، وعلمك الأسماء كلها، وأسكنك الجنة، لن يخذلك أبدا.

- المسؤولية، الأمانة، يا حواء. ما تزال فكرة غامضة في فكري، آمل أن يكون النور الذي أنار طريقي سبيلا لإنارة فكري (في شجن) محتاج إلى الهداية. لا أكتمك سرّاً أن النور الذي تفجر في الأفق أشعرني بعذاب الضمير.

- عذاب الضمير ؟

- أي نعم، منذ دخلنا الجنة ونحن نلهو بعيدين كل البعد عن اية مسؤولية، لم نفكر في المهمة التي خلقنا الله من أجلها، مهمة صعبة حقا، ولكنها مسؤولية وأمانة استهنا بها حتى الآن، ألا نكون عرضة لعقاب الله لتخلفنا عن أداء الأمانة ؟

- عقاب الله...؟ سلمت لي وسلم فمك من كل سوء، أصبتني برعب يا آدم، أفي الجنة عقاب ؟

- قد يكون أو لا يكون، وما يزعجني ان نطرد من الجنة كعقاب على التخلف عن المسؤولية.

أصيبت حواء برعب شديد لف كيانها، تلعثم لسانها برعشة اقفرَّ لها جسدها، حاولت أن تنطق فعجز فمها عن النطق بالكلمات، ظنت أن ما أصابها مما لم تعرفه من قبل، تمسكت بساعد آدم تحسبا أن يهوي بها ما تقف عليه من عشب.

- ما لك ترتعشين يا حواء، أبك تعب أم جوع ؟

- لا هذا ولا ذاك يا آدم، وإنما هو الحديث عن المسؤولية والأمانة.

- حديث لا يرعش ولا يصيب بالإحباط، الأمانة مفهوم الوجود، أتريدين كل الوجود دون أن تتحملي الأمانة، أنا وأنت

مدعوان لتحملها، بعد أن عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها.

-ترانا أقدر منهم جميعا على ذلك ؟ أخشى ألا يكون.

ضحك آدم حتى كاد أن يستلقي وقد شعر بالغثيان. تلفتت في إشفاق إلى وجهه المرعوب، ظن أن ضحكته ستخفف عنها ما ألمَّ بها، شدد من قبضته على كفها وهو يتحدث كما يتحدث إلى نفسه :

- أنا وهي - إنسان - السماوات والأرض والجبال أجرام. مُنِحْنَا عقلا وتفكيرا وحسن تدبير. الأمانة ليست جمادا تحركه القوة. أحسب أنها تفكير وعمل وبناء للكون. الله الذي خلقني من طين وخلق مني زوجا يستطيع أن يفعل، لم يخلقني عبثا. أعتقد أنه خلقنا لنعمل، لنكون موضع قدرته على الفعل، على أداء الأمانة في بناء وتوجيه الكون. تلك هي المسؤولية والأمانة التي يجب أن نحملها. أليس منها أن يكون لنا من نسلنا إنسان آخر - أناسي أخرى - تتحمل معنا المسؤولية؟ التفت إلى وجه

حواء، تطلع بعينين مشبوبتين إلى جسمها... غض بصره، وكلمة المسؤولية تلقي بثقلها على فكره، كانت تستمع في وعي وإدراك، انتظرها لتسأل. لم تنبس بكلمة. أضاف قائلا :

- هكذا أُلهِمتُ يا حواء لحظة أشرق النور بين عيني وعم الآفاق، وألهمت أني وأنت والذين يأتون من ذريتنا مطوقون بتحمل هذه المسؤولية - الأمانة - أو مستعدة أنت :

- إنساق فكرها وراء كلمة ذريتنا. تساءلت في صمت ألنا - أستكون لنا - ذرية...؟ عجزت عن الجواب. أجابت:

مستعدة لكل ما أنت مستعد له، لا تنس يا آدم أني زوجك.

- إذن لنبدأ منذ الآن بالتفكير في المسؤولية.

- آدم، كلمة من كلماتك شغلت فكري، أعتذر إذا كنت في حاجة إلى توضيح، (لم تنتظر جوابا)... قلت والذين يأتون من ذريتنا، أسيكون لنا ذرية ؟

ضحك لسؤال سهل ولكن الإجابة عنه معقدة.

- أنا وأنت ساذجان، سكنا الجنة وتمتعنا بكل نعمها، ومن طيباتها أنك كنت لي زوجة وكنت لك زوجا، أنت ساعة الاستجابة، كنت فيها وكنا مغموران بسعادة الإنجاب، فالإلهام لم يتخل عني حتى في تلك اللحظة التي انغمر كيانك في أحاسيسي غير منظورة. تلك بداية الأمانة يا حواء. اندفعنا معا بقوة غيرية لنؤدي البداية ولتجعل مني ومنك ذرية، ستعرفين بالممارسة أنك ستكونين أما وسأكون أبا، وسيكون للأبناء أبناء وستكون بداية القيام بالأمانة استمرارا للأداء والتحمل.

سألت في انبهار وغمرة المفاجأة :

- وستسعنا الجنة التي نسكنها ؟

فكر طويلا وهو يقول في نفسه : هذه الحورية لا تتوقف عن الأسئلة، كأنها خلقت لتسأل. علي أن أجيب. هل أستطيع أن أبتكر لكل سؤال جواب ؟ ألهمني يا خَالِقِي، أنا نفسي في حاجة إلى العلم...

بعد وقت بدا لها طويلا وهما يقطفان من حقل تحفل جنباته أشجار التوت.

- يبدو لي يا أمة الله أن هذه الجنة ليست كل ما في الكون، الله الذي خلقني وخلقك من طين خلق أكوانا أخرى ستسع ذريتنا وذريتهم، لشيء واحد هو أداء الأمانة.

- وما دورك ودوري في ذلك ؟

- قلت لك بأننا سنبدأ وسيسير الآخرون على خطانا، تحملنا عنهم الاستجابة وقبلنا يوم قبل لنا «أَسْكُن أنتَ وزَوْجكَ الجنَّة»

- اهتز كيان فكر حواء من كثرة ما غمرها آدم من أفكار بدت لها رائعة بمقدار ما هي معقدة لدرجة أن عقلها لا يكاد يتحمل ما أخبرها به آدم.

- آدم، أنت الآن غيرك من قبل، غمرتك إلهامات، كأنك أصبحت آدم آخر، تحدثني بأشياء لم يتحملها عقلي.

- (ضحك في إجابة معاتبة) تعترفين. كيف لا تحتملين هذا الذي أحدثك به، وأنت العارفة بكل شيء ؟

اقتربت منه حتى التصقت به مدت ذراعها مطوقة خصره، تعثرت خطواتها. جلسا على العشب ووجهها يقترب من وجهه وعيناها في اتجاه عينيه وتقول في استحياء :

- آدم. أنت معلمي. زوجك أنا. منضبطة معك في القيام بالمسؤولية، في أداء الأمانة، لنكون أنت وأنا أهلا لما وضعه الله على عاتقك وعاتقي من بعدك، بعد أن عجزت السماوات والأرض عن حملها.

ستنجح. لن يدعك خالقك تفشل.